آذان حمزة

بقلم: حسني الجهيني

لم تكن العلاقة بين (حمزة عبد السلام) وجاره (أسامة أيوب) جيّدة على الإطلاق، بالأصح لم تكن هناك أية علاقة بينهما بالرغم من أنهما يسكنان في بناية واحدة في شقتين متقابلتين، وقد كان (أسامة) خيرَ مثال على الجار الغامض الذي لا يتحدّث عن حياته ولا يعطي سره لأحد، لا يعرف أي ساكن في البناية أي شيء عن وظيفته.. بلده.. سبب كونه يعيش وحيدًا رغم هيئته التي تدل على أنه جاوز الأربعين من عمره، وهو ما شعر السكان بسببه بالضيق؛ لكونهم لم يستطيعوا إشباع فضولهم، وتمنّوا له أن يرحل من البناية قريبًا؛ ليأتي أي ساكن بدلًا منه يستطيعون معرفة وظيفته وبلده، وما سبب كونه يسكن وحيدًا إن كان يسكن بمفرده.

ثلاثة أشهر مرّت منذ انتقاله للسكن في البناية، ومن بعدها بدأ السكان في طرح التخمينات عن (أسامة) وماضيه المجهول.

قالت أم (سجدة) أثناء وقوفها في الشرفة تنشر غسيلها لجارتها (إيناس) الساكنة في الدور الرابع:

– أظن أنه هجر زوجته وأطفاله المساكين وهرب من مسئولية الإنفاق عليهم وانتقل للعيش هنا.. كل الرجال هكذا أوغاد.

بينما قال الأستاذ (سراج) بصوت هامس أثناء إلقاءِه زهر الطاولة للجالس في مقابلته بعد مرور (أسامة) من أمام المقهى في وقت متأخر من الليل:

– أقطع زراعي، وليتيتّم أولادي، إن لم يكن هذا الرجل هاربًا من ثأر، تلك النظرات الزائغة والتصرفات المريبة لا يمكن أن تصدر إلا من رجل هارب من ثأر.

أما (حمزة) فكان هو الوحيد الذي كان يسمع وينصت دون أن يتدخّل في الحديث، وعلى رغم أن كل الافتراضيات تلك قد طرحها عقله من قبل، إلا أنه كان يُوقِن أن هناك شيئًا أكثر سريّة وخطورة يخفيه (أسامة)، خصوصًا مع تلك الطرقات الخافتة والهمهمات الغريبة التي تصدر من شقة جاره بمجرد أن يحلّ منتصف الليل.

كان (حمزة) يوشك على إدخال مفتاح شقته في مكانه في الباب، عندما سرت إلى أذنيه تلك الهمهمات الغريبة التي يسمعها كل ليلة في مثل هذا التوقيت، إلا أن هذه المرة كان فضوله يقتله، هناك شيء غريب بخصوص (أسامة).. هذا مؤكد، والطريقة الوحيدة لمعرفته تكمن في الاقتراب من بابه والإنصات لمَا يدور بالداخل، فربما يتمكن من حل اللغز.. وتفسير السر الذي فشل كل من في البناية في معرفته، هكذا توجه إلى ناحية باب شقة الأخير ووضع أذنه عليه، ومن ثم بدأ في إرهاف السمع للأصوات الآتية من الداخل التي كانت متداخلة، خليطٌ بين عدة أشخاص يتحدثون، وبكاء امرأة، صراخ طفل صغير، وصوت دقّ شيء في إناء معدنيّ، ونباح كلب، وخطوات تقترب وتقترب ويعلو صوتها!..

انتبه (حمزة) إلى أن صوت الخطوات بدا أقرب من اللازم، وقفز إلى ذهنه شيء، إلا أنه قبل أن يتراجع إلى شقته كان (أسامة) قد فتح الباب، وهو يتطلّع إليه بنظرة صارمة دون أن يفتح فاهُ، والغريب أنه كان مبتسمًا على غير عادته، تلعثم (حمزة) مرتبكًا:

– أعتذر.. لقد سقط مفتاح شقتي هنا وكنت فقط ألتقِطُه حتى..

وتطلع إلى وجه (أسامة) الذي كان لا تزال تعلوه الابتسامة الغامضة، وابتلع ريقه عندما سأله الأخير:

- هل سمعتَ شيئًا؟

أجاب (حمزة) باضطراب:

- لقد أخبرتُكَ أنني كنت فقط ألتقط.....

كرر (أسامة) سؤاله بنفس الطريقة المخيفة:

- سؤالي واضح.. هل سمعتَ شيئًا؟

هز (حمزة) رأسه إيجابًا في ذعر؛ فأومأ (أسامة) رأسه في امتنان، واتسعَت ابتسامته أكثر وهو يقول بطريقة بدت مخيفة:

- ستسمع حتى تحسِدَ الأصم على صمَمِه، وستعوى بالليل واضعًا كفّيك على أذنيك.. حينها ستتمنى لو أنكَ لا تسمع إطلاقًا.

وتطلّع مرة أخرى إلى (حمزة) وقال بلهجة إشفاق:

- مسكين.

ثم أغلق بابه في عنف، تاركًا (حمزة) في الخارج في قمة الذهول والفزع.

***

تلك الليلة قضاها (حمزة) في سريره دون أن ينام، كان متعرقًا في بيجامته من شدة القلق، برغم الطقس المائل للبرودة، وما زاد من أرقه كذلك بخلاف التفكير كانت تلك الطرقات العالية القادمة من أعلى، التي بدَت أشبه بخطوات ديناصور ضخم يضرب الأرض بقدمه، صاح لنفسه:

– فلتصمت أستاذ (عطا الله) القاطن في الدور العاشر، صحيحٌ أنك ربما تكون ذاهبًا للحمام في ذلك الوقت، ولكن ليس هناك داعٍ لإعلام جميع سكان البناية بصوت خطواتك أنه قد حان موعد تلبيتك لوظائف جهازك الإخراجي.

توقّف الصوت قليلًا، قبل أن يعود مرة أخرى بنفس الشدّة تقريبًا، امتعضَ (حمزة) مستاءً، قبل أن يزفر بضيق:

– اللعنة على كل سكان البناية.

ثم وضع الوسادة على رأسه، وحاول أن يخلُدَ للنوم، دون يدري كيف ومتى غرق فيه؟

***

ظهيرة اليوم التالي.. دَفَن (حمزة) رأسه بين ساعديه مستندًا بها على مكتبه داخل الشركة التي يعمل بها، وحاول أن يُريح ذهنه الذي تشوّش من ساعات النوم القليلة التي قضاها الليلة الماضية، صرخت به زميلته (شروق):

– كشف قيد الموظفين.. المدير يريده بسرعة.

تطلّع إليها بعينين منهكتين، فصاحت بصوت عالٍ:

– ماذا بكَ؟ هل أنت مريض؟

رمقها في دهشة، قبل أن يسأل في استغراب:

– ماذا بكِ أنتِ؟ ألا تستطيعِين التحدث بصوت منخفض؟!

عقدت حاجبيها، وردت:

– أنا أتحدّث بصوتٍ منخفض! يبدو أنكَ من شدة التعب أصبحتَ لا تحتمل أي صوت.

زفر في ضيق:

– يبدو أنني كذلك بالفعل.

عاودت صراخها:

– حسنًا.. يشفيك الله، فقط لا تنسَى كشوف الموظفين.

وغادرت بعدها، فتابعها (حمزة) بعينيه حتى انصرفت، وفي نفسه سأل:

– ما هذا الجنون الذي أحاط بكل مَن حولي منذ البارحة!

وكانت الإجابة واضحة، إلا أنها كانت بعيدة عن عقله في تلك اللحظة.

***

جلس (حمزة) بمطعم بجوار عمله لتناول الغداء شاردًا، يعبث بشوكته في طبقه دون أن يتناول من طعامه شيئًا، وبدا متعبًا كما لو أن أطنانًا من الحجارة تثقل كاهله، انتبه إلى ذلك الصوت الذي يشبه (كرااش) وتلفّت حوله، نظر إلى فتاة تقطِمُ شطيرة لحم، وتذمّرَ متعجبًا:

– ألا تستطيع تلك الفتاة أن تأكل بهدوء!

(كرااش.. كرااش) مرة ثانية قد سمعه..

وكان هذه المرة صادرًا من رجل يلتهم حِزمَةً من الجرجير كثَوْرٍ تسمين، تطلّع له مذهولًا قبل أن يدير رأسه فيما حوله بذعر وهو

يسمع تلك الأصوات العنيفة التي ملأَت أذنيه، ضجيج من الأصوات المتداخلة العالية لمضغ الطعام، واصطدام الملاعق بالصحون التي كادَت تصيبه بالصمم، لم يملك وقتها إلا أن يصيح:

– فلتصمتوا قليلًا.

عندها تطلع إليه كلّ مَن بالمطعم في غير فهم.

***

غادر (حمزة) المطعم حانقًا دون أن يتناول غدَاءَه، واستقل ذلك التاكسي ليوصله إلى منزله، كان سائقه شابًا يقود وهو يمرّر عودًا خشبيًا بين أسنانه بينما يراقب الطريق المزدحم الذي كاد يتوقف بغيظ، قال (حمزة) في تعجل:

– أسرع من فضلك.. أنا متأخر.

وفي الحقيقة كان حمزة غير متأخر عن شيء، فقط هي طريقة متّفَق عليها لاستعجال أي شخص، لا سيّما أنها تُكسِب قائلها نوعًا من الأهمية وكأن وقته من ذهب.

رد الشاب وهو يتطلع نحو حمزة في مرآة القيادة.

– عفوًا يا أستاذ.. لقد نفذَ الوقود الأيوني من الحوّامة، ولن نستطيع التحليق بها.. نياهاهاها.

كاد حمزة يردّ عليه، لولا رنين هاتف السائق في ذلك الوقت: فردّ وكان مكبر الصوت قيد التشغيل:

– ألو.. معكِ يا هويدا.. أنا بخير في العمل، وفي نفس الظروف كالعادة.

يسمع (حمزة) الزوجة تسأل:

– لابد أنّ معكَ راكبًا سمجًا من إياهم ولا تستطيع التحدث!

يتطلع الشاب إلى حمزة بابتسامة صفراء، ويقول باقتضاب:

– هو كذلك بالفعل.

تتحدّث هويدا:

– لا مشكلة.. أنا اتصلتُ بكَ فقط لأخبرك ألا تتأخر؛ لأنني أرسلتُ الأطفال لأمي، وأرتدِي الآن قميص النوم الأسود الذي تحبه، وهناك أيضًا...

كان (حمزة) طوال ذلك الوقت ينصتُ إلى المكالمة بأكملها؛ ففار غضبه في هذه اللحظة، وهو يخاطب السائق بعصبية:

– أغلق مكبر الصوت يا هذا، تلك أسرار بيوت ولا يصحّ أن يسمعها أي شخص.

تطلّع السائق بتيهٍ إلى شاشة هاتفه، قبل أن يعود لمخاطبته بحدة:

– أي مكبر يا أستاذ؟! لم أشغل أي مكبرات.

وعاد يقول بلهجة اتهام:

– يبدو أنكَ أنتَ من كنتَ ترمي أذنيك لتستمع للمكالمة.

تطلع (حمزة) بتوتر إلى شاشة الهاتف التي ما زالت المكالمة عليها جارية، وكان مكبر الصوت غير مفعلٍ، بينما كان يسمع صوت أنفاس زوجة الرجل في وضوح شديد، تساءل:

– ما الذي يحدث بالضبط؟!

في المسافة المتبقية على وصوله إلى المنزل.. كان (حمزة) يتلفَّت حوله بين الحين والآخر على أثر بوق سيارة أو صوت بائع أو على أغنية تشغّلها حافلة نقل ركاب، الأصوات كلها كانت عالية داخل أذنيه، وشعر أنه بالفعل يشتكي من شيء، تعالَى هاتفه باتصال من زميلته (شروق) التي تحاول الاطمئنان على صحّته، سمع صوت الرنين كما لو أنه خارج من سماعة (دي جي) في حفل صاخب، أغلق هاتفه بذعر، وما إن لمح البناية التي يسكن فيها تلُوح على الأفق؛ حتى قفز من السيارة مهرولًا بعد أن أنقد السائق أجرته، وكان كل مبتغاه أن يغلق عليه باب شقته بعيدًا عن كل تلك الضوضاء.

أمام باب الشقة.. لمح باب شقة المدعو (أسامة) ينفَتِح، ومن خلال فرجَةِ الباب أطل بوجهه يتطلّع إليه في سخرية، سقطَ المفتاح من يده، وتطلّع إليه مرتبكًا؛ فهز أسامة رأسه مبتسمًا وهو يغلق الباب بهدوء، سأل (حمزة) نفسه:

- ماذا يريد ذلك اللعين؟

وفتح بابه ودخل، وما إن رأى فراشه حتى رمَى عليه جسده المتعب، دون أن يدري متى وكيف استغرق في النوم؟

***

استيقظ هذه المرة على صوت عالٍ يشبه الصافرة، يصمتُ لثواني ثم يعود بنفس الشدّة والرتابة، اعتدَل في نومته مذعورًا، وحاول أن يحدّد مصدره، كان كل شيء يدل أن الصوت مصدره موجود بداخل الغرفة، فتح خزانة ملابسه وفتّش بين قمصانه وبناطيله دون فائدة، فتح دُرج الكومودو وتطلّع إلى هاتفه دون جدوى، دخل إلى المرحاض لإفراغ مثانته الممتلئة وما زال الصوت يدوّي من وراءه، عاد مرة أخرى وحاول العودة إلى النوم وتجاهُل الصوت؛ فلم يستطع، مالَ بجسده

نازظرًا إلى أسفل السرير، وهذه المرة عثر على مصدر ذلك الصوت، وكان غير متوقع..

كان مصدره كائنًا بنيَّ اللون ذا جسد لامعٍ من رتبة الـ(بلاتا أورينتاليس)!

كان مصدره هو صرصار مسكين بريء المظهر!

***

في الأيام التالية أصبح سمع (حمزة) رهيف أكثر، وبدأت الأصوات التي تصل إلى أذنه تزداد أكثر، شعر كما لو أنه يملك عدة آذان، وفوجئَ بسماعه بوضوح مكالمات هاتفيه لأشخاص يمرّون بجواره، أصواتَ دبيب حشرات الأرض، ونقاشات تدور بداخل الغرف المغلقة في بنايات الشارع، وعندما بدأ بسماع صوت وظائف أعضاء جسده الداخلية أثناء وجوده في العمل؛ لم يملك إلا أن يضع يديه على أذنيه ويبدأ في الصراخ بألم.

***

استنتج (حمزة) شيئًا: تلك اللعنة لابد أن مصدرها (أسامة) اللعين، هو قال نبوءته التي لم يستوعبها إلّا الآن، لم يكترِث بإبلاغ مديره وغادر من العمل بدون استئذان، وما إن وصل إلى باب شقة (أسامة) حتى بدأ في طَرْق بابها في عنف شديد، فتح الأخير الباب وتطلع إليه ببرود متسائلًا، فهتف (حمزة) وهو لا يزال يمسك رأسه التي تكاد تنفجر:

– أيُّ شيء لعين فعلته بي؟!

حدجه (أسامة) بنظرة مستفزة، مستفسرًا:

- أي شيء؟!

صاح (حمزة) ببغض وهو يحكم قبضته على عنق (أسامة):

- أنت تعرف كل شيء، تلك اللعنة التي ألقَيتُها عليّ.. أي شيطان أنت بالضبط؟ وما هو ماضيك؟ أريد أن أعرف كل شيء.. وقبل كل هذا يجب أن تخلصني من تلك الكارثة التي ألمّت بي.

تمتم (أسامة) بكلمة غير واضحة النطق؛ فتراخَت يدَا (حمزة) المحيطة بعنقه، وتسمّرَت إلى جانب جسده، بينما بدأ (أسامة) يتكلم:

- ألا تعرف أن استراق السمع فعلٌ غير مؤدب.. اعتبر هذا درسًا لك.

قال (حمزة) وقد بدأ يسمع صوت عملية إفراز الإنزيمات الهاضمة إلى الاثنَى عشر الصادرة من بنكرياسه:

- حسنًا.. لقد تعلمتُ الدرس بحق، الآن خلصني من معاناتي.

تطلع (أسامة) إليه بابتسامة سمجة قائلًا:

- للأسف لا أستطيع عكس التعويذة.

اندفعت الدماء في وجه (حمزة) وهو يقول:

- إذن سأقتلك، أو سأبلغ الشرطة، أو في أبسط الأحوال الجيران.

انفجر (أسامة) في الضحك، وهو يقول:

- الجيران! الشرطة! أنا لا اخاف من أحد، وعمومًا حتى لو أخبرتهم فلن يصدّقوك، هم من الأساس لن يتذكروا أي شيء عن وجودي في تلك البناية التي يسكنون فيها، فقد انتهت مهمتي هنا

وسأغادر.. أنت فقط وحدك من سيظل يتذكر.. أنت وحدك ستظل تتألم لباقي عمرك.

وقبل أن ينطق (حمزة) بكلمة كان (أسامة) قد ربَت على كتفه، وبعدها تبخر في الهواء في لمح البصر، اندفع (حمزة) إلى داخل الشقة وجال فيها بحثًا عن شيء يستدلّ به على مكانه؛ فلم يجد، كان كل شيء في الشقة مرتبًا كما لو أنها لم تُسكن إطلاقًا.

وهنا بدأت تلك الأصوات مرة أخرى في الاندفاع بقوة نحو أذنيه، مئات المئات من الأصوات تتسابق وراء بعضها البعض، ثرثرة نسوة.. قلقلةُ مفاتيح.. صرير باب.. خفقان قلب.. قهقهات ضحك.. دبيب أقدام.. انفجارات كويكبات.. وصهيل حصان.. وسهيف دب.

رقد (حمزة) على ركبتَيه وهو يمسك برأسه التي توشك أن تنفجر، وراح يضرب بها الأرض محاولًا إسكات تلك الأصوات التي تدخل إليها بلا هوادة، أغرق الدم جبهته في حين كان لا يزال يواصل صَدْمَ رأسه بالأرضية الصلبة، واستمر هكذا لبعض الوقت، قبل أن تخطر بذهنه فكرة تُبِيد معاناته؛ لينتهي به الأمر راقدًا على طاولة العمليات والطبيب يسأله قبل أن يحقنه بالمخدر لمرة أخيرة:

– هل أنت واثق أنك تريد ذلك أستاذ حمزة؟

تطلع إليه (حمزة) وعلى وجهه كل علامات الألم، وقال وهو يكزّ على أسنانه مجاهدًا التحمل:

– نعم.. أنا واثق.. أريد أن أصبح أصمًّا.

هز الطبيب رأسه بأسف، وبينما كان يغيب عن الوعي، كانت الأصوات في عقله تتضاءل، وكان آخر ما سمعه على الإطلاق ضحكات غريبة مجهولة المصدر.